خطوات.. خطوات

في السابع من كانون الثاني من هذا العام ظهرت صفحة (ثقافة شعبية) في (المدى) أسبوعية تظهر صباح كل أربعاء لتسهم في خدمة المأثور الشعبي في هذا الوطن المعطاء ولتبشر بالثقافة الشعبية كدرس جديد من دروس البحث الفولكلوري.

وقد قامت بعد هذا التاريخ صحف عزيزة أخرى بتخصيص صفحة أو أكثر للفولكلور وكان ذلك حقاً اسهاماً منها في خدمة التراث الشعبي العراقي.

لقد التف حول هذه الصفحة العديد من الباحثين العراقيين والعرب وقد حرصت (ثقافة شعبية) على الاحتفاء بالجديد من البحوث والعناية بالأقلام التي تولي المأثور الشعبي اهتمامها إيماناً منها بأن البحث الفولكلوري الجاد لم يعد استذكارات عادية أو ذكراً لطرائف مناسبات أو تكراراً لخطى سابقة في عملية الجمع والفهرسة، فقد دخلت حقل الثقافة الشعبية دراسات جديدة على صعيد البحث الميداني الحديث وقفت عند تأثيرات الفن السابع والشاشة الصغيرة وطرق الاتصال الحديثة الأخرى على الثقافة الشعبية فبدأت بعض الدراسات تبحث في دانتي، كمسلسل تلفازي شعبي وتأثيره على المجتمع الشاب كما خصصت دراسات أخرى للبحث في لغة الشارع في أوروبا ومستويات اختلافاتها المحلية (من منطقة إلى أخرى) ومن بيئة إلى ثانية فيما بحثت دراسات أخرى في عملية السفر الروحي عبر (الاي - ميل) بحثاً عن عوالم أخرى وصداقات جديدة مختلفة عن المألوف. وفي وقت تجري فيه تحولات اجتماعية وسياسية واضحة المعالم في مجتمعنا العراقي فإن دراسات ميدانية حول ثقافة العنف ولغة الشارع المتجددة والتغييرات الحاصلة في العادات والتقاليد ومتوالية الحذف والإضافة في الثياب والبيت التقليدي (الأزياء والعمارة) والموسيقى لم تدرس بعد.

إن (ثقافة شعبية) إذ تكرر الدعوة للمهتمين بالاستمرار في رفدها بموادهم الثمينة يسعدها أن تشير إلى أنها لن تنشر إلا المثمر الجاد والأصيل المخصص لخدمة ثقافة الوطن الشعبية.

المحـــــرر

من الذاكرة الشعرية

الحـــاج زايـــر الـــدويج.. موهبة شعرية كبيـــــرة

كاظم السيد علي

ما تعلم بهمي اشلون شبيت واصفر اللون
والناس كالوا مجنون
ابعكلي اقنعت بس أنه

هذا مقطع من قصدية (للهم ما تصح عوانه) للشاعر الكبير الخالد (الحاج زاير الدويج) اكتب عنه وفاء لعبقريته لانه يستحق التقدير. لكونه علماً من اعلام الشعر الشعبي وقمة شامخة من قممه. فالحديث عنه طويل. ولكني اسلط الضوء على جزء من تجربته الشعرية الثرة..

ولد في منطقة (برس) الواقعة بين مدينتي الحلة والكفل عام ١٨٦٠ وانتقل مع ابيه إلى مدينة النجف. ومنذ صباه طمح الاب لأن يكون ابنه عالماً أو أديباً.. وفعلاً تحقق طموح الأب.. فأصبح اديباً شعبياً لم يباره أحد.. فتعلم القراءة والكتابة في مدرسة (القوام) انذاك في محلة (المشراق) بعد ذلك تركها للظروف الصعبة التي مر بها بعد وفاة والده.. فحالت دون مواصلة الدراسة. وكان للعامل الديني وحضوره المستمر وملازمته للمجالس الادبية والدينية الاثر الكبير في تفجير شاعريته. مما اكسبته قابلية فذة اهلته لأن يكون في عداد الشعراء المبرزين.. امثال عبود غفلة والسيد مرزة الحلي والسيد جعفر القزويني والملا منصور العذاري وحسين النصار.. فكان (رحمه الله) يمتلك موهبة منفردة دون غيره فهو لا يمل عن المنادمة والمسامرة، محباً للنكته والمداعبة البريئة.. فكان سريع الجواب والبديهية واكثر قصائده يقولها ارتجالاً مما جعل اسمه يتردد في المجال الشعرية ومضايف السادة وشيوخ الفرات الاوسط انذاك:

ذبيتني ابجور وظلم
والروح ما تحمل هظم
من كثر ما ابجي بسكم
ذوبت شحمت عيني

وللحاج زاير مواقف وطنية تجاه بلده في الحرب العالمية عندما حوصر العراق وهدد بالخطر في عهد الدولة العثمانية تأهب العراقيون للدفاع واعلنوا الجهاد عن الدين والوطن. فحشدوا جيشاً إلى جهة (الفاو) للمحافظة على ثغر العراق.. فكان الحاج زاير مع الجيش بصفته جندياً مكلفاً.. كان يلقي على اخوانه الجنود البواسل قصائده ليشد من عزيمتهم للدفاع عن تربة هذا الوطن الغالي:

لعلوم الدين اشندينه
وين يروح
اللي معادينه
او عفنه
الدور الكل وجينه
احنه الموت المابي ظنه

كتب الحاج زاير الابوذية المباراة بالمثل الشعبي والمجاراة للشعر القريض والموال بالقريض كذلك مما جعله شاعراً متجدداً في هذا المضمار لأنه خرج من الوصف التقليدي الذي كان سائداً عند بعض الشعراء:

وضبي شبهوا خديه وردا
لقد اثموا بما قد شبهوه
فان الورد يذبل عند لمس
وذا يحمر مهما قبلوه

فباراه في هذا البيت من الموال (الزهيري) قائلاً:

جم دوب تقره لعد جيت
الحبيب اورود
وسهام لحظك وردن
بالضمير اورود
يالجذبتني دصل روض
الحبيب اورود
الفخر لليوم ما هو عازلي
لمس
او بصياخ الاشواك بيديه
الضمير لمس
الورد يذبل يصاحب من
جثير اللمس
وخدود ولفي يزودن
باحمرار اورود

إن كتاباته تأتي معبرة لواقع الحياة اليومية الذي كان محملاً بالبؤس والالآم وما يدور في صدره من خلجات وعاطفة واحساس مرهف. فمفردات الحاج زاير رصينة معنى تؤثر في سامعها وتحرك الكثير من الشجون في داخله. فكان شعره سجلاً حافلاً باحداث عصره وتقاليد مجتمعه:

الهوه ايفرهد ابعكلي وانه داوي
تذل نيران هبهب وانه داوي
كلمن لعب حصل وانه داوي
خسر واهل الهوه ايلومون بية

ولم تقتصر تجربة الحاج زاير.. على الشعر الشعبي بل تعدته إلى غيره من الفنون فكان محباً للغناء لكونه كان يمتلك صوتاً شجياً.. فأخذ له طوراً خاصاً لا يزال يغني إلى يومنا هذا ويسمى بطور (الزايري) نسبة للحاج زاير ومن اطوارنا الغنائية الجميلة ومن المطربين الذين اشتهروا وابدعوا فيه المطرب الريفي الكبير (جعفوري محمد) وبعض مطربي النجف انذاك.

واخيراً في عام ١٩١٩ سكن القلب النابض بالحب والشوق والصدق قلب الشاعر والانسان الذي ما زال حياً بانتاجه الغزير الرائع وما زال شاغل الشعراء والناس.

ألف ليلة وليلة.. ملاحظات وأفكار

محـــاولات الكتاب العرب في تهـــذيب الحكايـــــات

معتصم زكي السنوي

الكبيرة دون أن ينسى أنه لا يضيف على ما هو مثبت في القرآن وحديث الرسول وقصص الصحابة والأولياء كثيراً. كما إنه قادر على الاحتكام إلى الله ساعة ما يشاء، نادباً حظه، أو متضرعاً إليه، أو طالباً غفرانه من ذنب أو معصية أو زلل. وقد أصدر د. محسن مهدي تحقيقاً خاصاً بألف ليلة طبع في لندن عام ١٩٨٦ جاء متميزاً في بابه.

الملك شهريار قاتل النساء يتزوج شهرزاد الحكيمة

وتبدأ الليالي بمدخل أو تمهيد هو بمثابة تبرير لسرد الحكايات. يكتشف الملك شهريار خيانة زوجته فيقتلها ويجتاز أزمة نفسية حادة فيتخذ كل ليلة زوجة عذراء ويقتلها في الصباح، ويهرب الناس ببناتهم من المدينة. وأخيراً يتزوج شهرزاد التي تصمم على أن تكون سبباً لخلاص بنات جنسها من شهريار.. وهكذا تبدأ شهرزاد لياليها الرائعة التي حالت بين الملك وبين التهور والانحراف، وشهرزاد ابنة الوزير طلبت من أبيها أن يسمح لها بالزواج من ذلك الملك الغاضب المرير والسوداوي المتغطرس شهريار، فبعد غدر زوجته الأولى، قرر أن يتزوج واحدة كل ليلة ليقضي عليها في صباح اليوم التالي. حيث لم يعد يثق بالنساء، ورأى في هذا الأسلوب خلاصه الوحيد من غدرهن. ولم تكن شهرزاد على شاكلة غيرها من النساء: فهي تعتمد كثيراً على فطنتها ودرايتها ومعرفتها الواسعة، إنها أكثر إلماماً بوضعه النفسي من غيرها من النساء، فجاءته بمجموعة من القصص تشاغله بها كل ليلة فاعلة فيه فعل السحر والدواء، مريحة إياه تارة، ومداوية جروحه وآلامه تارة أخرى. فقصصها لا تخلو من إشارت إلى غدر النساء، لكنها وهي تكتسب ثقته بذلك، كانت تذكر أقاصيص أخرى عن وفائهن وذكائهن: ولم تزعجه بالمواعظ والنوادر المباشرة، بل جاءته بقصص مشوقة، أثارت عنده ولعاً بهذا الفن ولمدة ألف ليلة وليلة! هكذا هي الحكاية، صدقت أم لم تصدق. ولكن - والعهدة على من روى كما يقول المؤرخون في أمور تحتمل الصدق والافتراء - كانت شهرزاد قد أصبحت أما آنذاك. وكان الملك قد تحرر من سوداويته. أما موقفنا نحن كقراء أدب من هذه القضية فإننا نجد أنفسنا مجبرين على القبول بتخريج جاء به الناقد الإنكليزي (G. K. Chesterton) فهو يرى أن شهريار شاهد على الاستقلالية الذاتية للفن: (فلم يحصل في كتاب آخر) كما يقول في كتابه بهارات الحياة (ص٥٦ - ٦٠). (أن يقدم اعترافاً كهذا بمعجزة الفن ومكنته الكلية) عليها (غالان) وتوفر على بعضها الآخر شفاها يمكن تحديد (المواطن الفعلية للحكايات).

٢.لكن هذه المواطن لا يمكن تحديدها دون دراسة (بتوغرافية) الحكاية ولا سيما المدينية منها. فالبتوغرافية يمكن أن تفيد لا في تأشير المكان فحسب، بل في التدليل على تاريخ التأليف أو الوضع التقريبي للحكايات أو لبعضها.

٣.دراسة اللهجات: فحيث إن الحكاية في وضعها الأول (التقريبي) شعبية وحيث إن (العامية) و(اللغة الهجينة) بين العامية والفصحى بدأت تسود في المجالس المدينية (منذ القرن الثالث الهجري) (تقريباً) فإن من شأن اللهجة أن تقودنا إلى أصل النص، وواضعه أو مروجه.

٤.دراسة الطباع والعادات والاتجاهات السائدة، وكذلك تفحص ما يتعلق بهذه من أثاث أو أزياء أو منتديات أو (حدائق) لأن هذه جميعاً تقود إلى تعيين (مكان) النص، وتاريخ انتشاره وتداوله ومعروف أن الحدائق وحدها تقدم عدداً من الأدلة (التضاريسية) والمعمارية والأخلاقية أيضاً. حتى إن هناك دراسة عن (الحديقة المغلقة) في ألف ليلة وليلة. قام بها أحد الباحثين، كما إن أحد المعماريين الأمريكان في مطلع القرن العشرين قام ببناء مدينة صغيرة موزعة حسب الخرائط العمرانية المتكررة في ألف ليلة وليلة.

٥.متابعة التقاليد الدينية ودرجة التقوى، من حيث علاقتها بالفقه والتشريع من جانب، وعلاقتها بالغيبيات من جانب آخر. فمعروف أن المسلم (لا سيما العربي) يستمع إلى الغيبيات التي تحتمل المبالغة فمتسلط كشهريار قد تأتمر بإمرته الجيوش، ولكن لزم عليه أن يستمع إلى رواية: لقد كان الفن وحده بديل الحياة.. إن حكايات شهرزاد توجد (حماس الإعجاب) و(تثير الاندهاش) هذه القراءة أيضاً عدها (أفلاطون) (مصدر الفلسفة ذاتها) لأنها شبيه بموروثه الأسطوري الجليل الذي (يستخدم فقط إثارة العجب والاندهاش).

فعل السحر ودور المرأة في الليالي

وللحسر مكانة خاصة في الليالي.. وهو سحر تتوسل به بعض الشخصيات الشريرة لتحويل البطل من آدمي إلى حيوان أو جماد كما في حكاية التاجر والعفريت ويتم هذا التحول بوساطة ماء يقرأ عليه الساحر أو الساحرة بعض التعاويذ ثم يرشه على البطل فتتغير هيئته إلى حيوان أو جماد ويظل هذا حاله حتى يأذن الله فيرسل من يبطل هذا السحر ويعيده إلى صورته الآدمية كما في حكاية (السلطان محمود صاحب الجزائر السود والكنوز من المحاور الرئيسة في حكايات ألف ليلة وليلة) يعثر البطل على كنز فينتقل من حال إلى حال ويصبح بين عشية وضحاها من ذوي الثراء والنفوذ كما في حكاية جودر وحكاية وردان الجزار. والكنز عادة يكون مرصوداً باسم شخص معين ولا يفتح إلا له. وتلعب المرأة دوراً خطيراً في الليالي.. قد تكون ملكة أو جارية ولكنها دائماً شابة فاتنة يخلب جمالها الألباب. ويتفنن الراوي عادة في وصف محاسن البطلة وصفاً يلهب خيال السامعين.. والبطلة طيبة القلب سليمة الطوية غالباً ولكنها لا تخلو من المكر والدهاء أحياناً كما في حكاية قمر الزمان والملكة بدور وللمرأة العجوز دور لا ينكر في بعض الحكايات وكثيراً ما تكون سبباً في تغيير مجرى أحداث الحكاية.. وإذا كانت في بعض الحكايات تعمل على الجمع بين العشاق فإنها في حكايات أخرى شريرة خبيثة مثل العجوز (شواهي) في حكاية عمر النعمان.

شخصيات الليالي

ومن الشخصيات البارزة في حكايات (ألف ليلة وليلة) التجار ويمثلون الطبقة البرجوازية وهم عادة على درجة كبيرة من الثراء.. يسكنون القصور ويصاهرون الملوك والسلاطين ويعيشون في بذخ وترف. غير أن أبطال الحكايات ليسوا جميعاً من ذوي الثراء بل أن منهم حرفيين ومهنيين من أبناء الطبقة الكادحة.. فيهم الخياط، والطاهي، والحطاب، والصياد، والخباز، والإسكاف، وهم جميعاً يشقون في سبيل الحصول على لقمة العيش ولا يعرفون التسول أو التشرد، بل يؤمنون بأن العمل شرف وواجب. ومن أظرف الشخصيات في الليالي الصعاليك والشطار والعياق والشاطر يذكرنا باللص الشريف فهو لا يسرق إلا لإظهار براعته وتفوقه على أقرانه في (الملاعيب) ويتميز الشاطر بملامح وصفات خاصة ولا بد أن يراعى تقاليد أبناء طائفته. ويرى بعض الدارسين أن حكايات الشطار متأخرة بالقياس إلى سير الفرسان ويرجحون ظهورها وتكاملها في الحواضر بصورة عامة وفي مدينة القاهرة بصورة خاصة. ويلعب الحيوان دوراً مهماً في حكايات ألف ليلة وليلة. فمثلاً في حكاية قمر الزمان والملكة بدور نجد أن الطير محور رئيس في الحكاية. وتتحدث بعض الحكايات عن حيوانات خرافية مثل الرخ في حكاية (السندباد البحري). وتغلب على حكايات الليالي نزعة الخير وهي تؤكد في كل مناسبة أن الخير جزاؤه الخير وإن كل شرير لا بد أن يلاقي جزاءه وإن الآثم لا يفلت من العقاب العاجل حتى لو أخفى إثمه من أعين الناس في باطن الأرض. وتطرق بعض حكايات ألف ليلة وليلة موضوعات تعليمية كما هو الحال في حكاية الجارية تودد.

أثر الفنون التشكيلية والموسيقية في تجميل صورة الليالي

وللفنون التشكيلية مكان مرموق في ألف ليلة وليلة، فمثلاً في حكاية (تاج الملوك ودنيا ابنة الملك شهرمان). نجد أن تاج الملوك يلجأ إلى مصور ليرسم له صورة تمثل صياداً وطيوراً على جدار (المنزل الأبيض) في بستان الأميرة دنيا وتكون هذه الصورة سبباً في توطيد العلاقة بين تاج الملوك والأميرة دينا. وقد أثرت ألف ليلة وليلة في كثير من الفنون، ففي مجال القصة يبدو هذا الأثر واضحاً في كثير من القصص الاجتماعية في إيطاليا وفرنسا وإنكلترا خلال القرن الثامن عشر وفي الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر وفي مصر خلال القرن التاسع عشر. ولا تزال ألف ليلة وليلة مصدراً يستلهمه كتاب القصص في العالم حتى اليوم. وفي مجال المسرح نجد أن بعض المسرحيات العربية التي ظهرت بالقرن التاسع عشر قد استوحت حكايات ألف ليلة وليلة وفضلاً عن هذا فإن بعض (بابات) خيال الظل في الجزائر مستوحاة من الليالي كما إن كثيراً من موضوعات مسرح العرائس في تشيكوسلوفاكيا وألمانيا وروسيا تقوم على حكايات مشهورة من ألف ليلة وليلة. وقد سبق أن أشرنا إلى أن ألف ليلة وليلة تعد مصدراً أساسياً لأدب الأطفال في كثير من بلدان العالم. ومن الأبروات التي استلهمت موضوعاتها من حكايات ألف ليلة وليلة أوبرا (علاء الدين والفانوس السحري) موسيقى ايزوار Isovard وتأليف أتيين Etienne وأبرا (علي بابا) موسيقى كرمبيني Grembini وتأليف سكريب Scribe وأوبرا (معروف أسكاف القاهرة) موسيقى هنري رابو H. Rabaud وتأليف لوسيان نيبوتي Lucien Nepoty أما عن أثر ألف ليلة وليلة في مجال الموسيقى فحسبنا أن نشير إلى متابعة شهرزاد لرمسكي كورساكوف ومن الباليهات الرائعة باليه (شهرزاد) وقد اهتم رسامون بتصوير شخصيات ألف ليلة وليلة وظهرت هذه الرسوم في طبعات ألف ليلة وليلة المترجمة، كما نجد في محفوظات المكتبة الوطنية بباريس عدة رسوم تمثل نماذج من ألف ليلة وليلة منها (الجارية) و (امرأة من الحريم) ونرى أثر الليالي واضحاً في بعض لوحات الفنان الفرنسي ديلاكرو مثل لوحة (نساء الجزائر) وقد استهوت هذه اللوحة الفنان بابلو بيكاسو فقدم عنها أربع عشرة دراسة تكعيبية.

ومن لوحات ديلاكروا التي تذكرنا بحكايات ألف ليلة وليلة (المهرج العربي) و (معركة عربية) و (فارس عربي يلعب على جواده) ومن الفنانين الذين تأثروا بموضوعات ألف ليلة وليلة أنجر Ingres ورينوار Rinoir وماتيس Matise من الأعمال المعاصرة لوحة (راقصة شرقية) لفان دونجي Van Dongen

الليالي والسينما والريادة في الأدب العالمي

وقد غزت حكايات ألف ليلة وليلة ميدان صناعة السينما، ومن الأفلام التي لاقت إقبالاً عظيماً من الجمهور فلم (لص بغداد) وفيلم (علي بابا) وفيلم (السندباد البحري). ومن أقوى الأدلة على مكانة هذا الكتاب في الأدب العالمي أن جميع المحاولات التي تعمل على تصنيف روائع الأدب في العالم لم تغفل كتاب (ألف ليلة وليلة). وإنها وضعته دائماً في مقدمة الجهود التي استطاعت أن تحظى بالخلود والتي اجتمع على الإعجاب بها ونقلها من لغة إلى لغة ومن فن إلى فن. العلماء والأدباء والمصورون والموسيقيون وكل من يحقق التجربة الفنية بالكلمة والإشارة والإيقاع وتشكيل المادة. وقد اشتهرت أسماء بعض الشخصيات في الليالي وفرضت على الأجيال ترديدها لأنها تجسم قيمة أو موقفاً أو صفة أخلاقية أو لأنها تمثل الأمل في عالم تصارعه النزعات والأهواء مثل شهرزاد، السندباد، علي بابا، والشاطر حسن. وصفوة القول: ليس من سبيل إلى فحص تأليف (موروث) كحكايات الليالي • غير اتخاذ عواطفنا ومشاعرنا معياراً، فنحن لا نعجب (بجني) ليالي السمر العربية أو نكرهه، لأننا أحطنا علماً أن بعض الجن فاضل والآخر حقود خبيث يمتلك طاقة على تحقيق المعجزات، لكننا نعود أنفسنا لتصديق (الخوارق) التي تسرد عن الجن، تماماً كما يحصل من تلبية واستمتاع ونحن نطلع على أعمال (هومر) العجيبة وعلى (الهنة) أو على (مسخ أوفيد). إن الثقة التي تستديم في هذه الحكايات هي نفسها التي يمنحها الإغريق لـ(الخوارق المغررة) لدى شعائرهم. فعندما يطالع القارئ هذه الكتابات فإن (قابلية الوهم والخيال تقبل بهذه) لأن أغلب الآلية الرومانسية لهذه الحكايات والأفكار التي ترد فيها (مأخوذة عن الأقدمين الأجلاء، مدعومة ومعززة بالمعتقد الشعبي السائد. وهناك حقيقة يجب التوقف عندها وهي: أن الباحث ما زال يجد في الليالي أكثر من صورة اجتماعية ونفسية ومشكلة فلسفية تستحق الدراسة والمتابعة، إلا أن هذه الحكايات تبدو للروائي الحديث والناقد الأدبي المتخصص ينابيع الفن القصصي، تمتلك مواصفات ومزايا لا بد أن يراجعها باستمرار قبل أن يواجه مشكلة الكتابة!

ظهرت بمصر في الربع الأخير من القرن الماضي دراسة جامعية جادة عن ألف ليلة وليلة جمعت آراء السابقين واعتمدت على منهجي النقد والموازنة وأفادت من التفسير الاجتماعي للأشكال والمضامين والعلاقات في هذه المجموعة المشهورة من الحكايات الشعبية، وقامت بهذه الدراسة (الدكتورة سهير القلماوي).